نظرية الوصل والفصل
عند الإمام عبد القاهر الجرجاني

عبد المجيد لعراس
- جامعة الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد فان اللغة العربية من أغنى اللغات كلها ، وأوسعها مذهباً وأدقها تصويراً وكيف لا فقد فسحت صدرها لكل غرض تناوله البشر ، ولم تضق ذرعا بنتائج أفكار الفلاسفة والحكماء ووسعت جميع العلوم والفنون ولا غرو ، فان من أكبر مفاخرها أن نزل القرآن الكريم بها الذي هو المعجزة الكبرى والآية الخالدة الدالة على صدق رسول الله ﷺ فهو أبلغ كلام وأعلاه طبقة وأسماه منزلة .

ومن أهم بحوث البلاغة بحث الفصل والوصل عل غرار ما تناوله رائد البلاغة وقائدها بلا مدافع ، وحادي عيسها بلا منازع ، الإمام عبد القاهر الجرجاني فقد كانت البلاغة في عهده رافلة في أبهى حللها مزدانة ، بأجمل حليها لأنه قد عالجها خالصة من شوائب المحاكاة اللفظية ، ثم خلف من بعده خلف أخضعوها لجدل الفلاسفة ، وأدغموها في المخالفات اللفظية فتعسفت مباحثها وأظلمت دروبها .

فمن الخطأ الصارخ انهم أقحموا مباحث لا تتصل بالبلاغة فنجدهم حين يتحدثون عن الجامع بين الجملتين يتلمسون الطريق الى الفلسفة ليتحدثوا عن الجامع الخيالي والوهمي والعقلي ويغفلون طبيعة الموضوع الأصلي فلهذه الأسباب وهاتيك الحوافز أجدني أستمد العون من السماء سائرا على نهج الإمام عبد القاهر في مبحث الفصل والوصل .

(وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

الفصل والوصل ومنزلتهما

اتفق الباحثون في البلاغة العربية أن بحث الفصل والوصل يعد من أهم المباحث البلاغية ، واذا كنا نعلم أن الإمام عبد القاهر الجرجاني هو أول من تناول هذا المبحث بافاضة وعمق فجمع شتاته وضم متفرقه ووضع له مايشبه الضوابط التي تعين الباحث على ادراك أسراره فانه يجب أن يكون معلوما أن المتذوقين لأسرار البلاغة قبل الإمام عبد القاهر كانوا يدركون منزلة الفصل والوصل بين الجمل ، فقد روى صاحب الصناعتين عن بعض السابقين أن المأمون قال «ان البلاغة اذا اعتزلتها المعرفة بالفصل والوصل كانت «كاللآلئ بلا نظام» وقال أبو العباس السفاح «قف عن مقاطع الكلام وحدوده واياك أن تخلط المرعى بالتهمل» .

ومن حلية البلاغة المعرفة بالفصل والوصل وكان يزيد بن معاوية يقول «اياكم أن تجعلوا الفصل وصلاً فانه أضد وأعيب من اللحن» وكان بعض عظماء العرب اذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكاتبه : «افصلوا بين كل معنى منقض وصلوا اذا كان الكلام معجوناً بعضه ببعض وقيل للفارسي ما البلاغة فقال «معرفة الفصل من الوصل» والذي يقصر البلاغة على معرفة الفصل والوصل لا يكون أمام وضع تعريف جامع مانع لها على خلاف ذلك فالميدان البلاغي يتسع ليشمل هذا البحث وغيره من المباحث الأخرى وانما يعطينا بذلك دليلا على أن هذا الباب له منزلة كبرى بل هو أهم أبواب البلاغة ومباحثها فكان من أدرك أسراره ونكته البلاغية فقد أحاط علما بالبلاغة لأنه فهم أهم أبوابها ، ولذا فقد صدر عبد القاهر الجرجاني حديثه عن هذا الباب بقوله «اعلم أن العلم بما ينبغي ان يصنع في الجمل من عطف ، بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منشورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ولا يأتي لتمام الصواب فيه الا الأعراب الخلص والأقوام طبعوا على البلاغة وأتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد» .

التعريف الاصطلاحي

الوصل : عطف بعض الجمل على بعض . والفصل : ترك هذا العطف : هذا هو التعريف الذي ارتضاه جمهور علماء البلاغة للفصل والوصل منذ الخطيب القزويني ، ونلاحظ على هذا التعريف أنه أخرج بحث الفصل والوصل بين المفردات من دائرة هذا الباب فما السبب في ذلك .

الفصل والوصل بين المفردات

ان الذي حدا بكثير من علماء البلاغة ممن جاء بعد عبد القاهر الجرجاني أن يقصروا بحث الفصل والوصل على الجمل بل على التي لا محل لها من الاعراب منها ، وعلى حرف الواو دون غيره من حروف العطف هو أن الإمام عبد القاهر حين تناول هذا الباب ذكر في صدره بايجاز العطف بين المفردات وبين فائدته وهو اشراك الثاني في اعراب الأول وحكمه ورأى أن الجمل التي لها محل من الاعراب تأخذ حكم المفرد ان كان للمعطوف عليها حكم وموضع من الاعراب وقال : «ان الأمر يسهل والذي يشكل أمره هو الضرب الثاني» وذلك أن تعطف على الجملة العارية الوضع من الاعراب جملة أخرى كقولك «زيد قائم» و«عمرو قاعد» و«العلم حسن» و«الجهل قبيح» لا سبيل لنا أن ندعي أن الواو أشركت الثانية في اعراب قد وجد للأولى بوجه من الوجوه واذا كان كذلك فينبغي أن نعلم المطلوب من هذا العطف والمغزى منه ولم يسننوا لحال بين أن تعطف وبين أن تدع العطف فتقول «زيد قائم» و «عمرو قاعد» بعد الا يكون هنا أمر معقول يؤتى بالعاطف ليشترك بين الأولى والثانية» .

فلم يقف الإمام عبد القاهر أمام عطف المفردات طويلاً لأن الأمر فيها هين ويسير وتتضح أسرارها البلاغية بأدنى نظر ولا يعني هذا أن دراسة الفصل والوصل بين المفردات خالية من الأسرار التي تجعلنا نتساءل عندما نرى بعض هذه المفردات تجيء أحياناً مفصولة وأحياناً أخرى تأتي موصولة وعالم البلاغة هو الذي يجب عليه أن يتصدى لبيان تلك الأسرار نقرأ قوله تعالى ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا﴾ وقوله تعالى أيضاً : ﴿هو الله الذي لااله الاّهو الملك القدوس السلام المؤمن المهين العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون﴾ وقوله تعالى : ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ وغير ذلك مما هو مثبوت في ثنايا الكتاب الكريم وعلى ألسنة الكتاب والشعراء فاننا نرى في الآيات الكريمة السابقة كثيرا من الصفات جاء بعضها مفصولا عما قبله وجاء الآخر موصولاً به ولا يمكننا أن نرجع ذلك الى التشريك في الحكم أو عدم التشريك فيه فالأمر اذن يحتاج الى أعمال النظر والبحث وراء السر في ذلك ولقد بينه علماء التفسير بثقافة كانت مزيجا من البلاغة والنحو حين ذكروا أن الفصل في قوله تعالى : ﴿مسلمات مؤمنات﴾ .. الآية وقوله : ﴿الملك القدوس﴾ ... الآية .. بسبب أن هذه صفات متعددة لموصوف واحد .

أما المجيء بالواو في قوله تعالى : في ﴿ثيبات وأبكارا﴾ وقوله : ﴿هو الأول والآخر﴾ ..

الآية فانها وان كانت أيضاً صفات متعددة لموصول واحد فان ما بينها من التقاء يحتم الاتيان بالواو حتى لا يتوهم الجمع بين الأضداد وهذا أحسن من قول بعضهم أن هذه الواو تسمى واو الثمانية .

هذا عن العطف بين الصفات :

فماذا عن العطف بين المفردات التي ليست بصفات فانها هي الأخرى لم تلق عناية عند كثير من الكاتبين في الفصل والوصل وربما لنفس السبب الذي ذكرناه من أن الإمام عبد القاهر الجرجاني قد مر عليها مروراً سريعاً فاقتفى المتأخرون ممن جاءوا بعده أثره وحذوا حذوه وكان المأمول منهم أن يتناولوا بالشرح والايضاح المسائل التي بناها وأسس قواعدها .

وتظهر أهمية دراسة الفصل والوصل بين المفردات عندما نعلم أنها تتصل اتصالاً وثيقاً بدراسته بين الجمل اذ أنها الأساس الذي تقوم عليه موضوعات هامة من هذا البحث مثل الفصل بين الجملتين لكمال الاتصال حين قاسوه على الفصل الواقع بين البيان والمبين والتأكيد والمؤكد والبدل والمبدل منه في المفردات ومثل حديثهم عن الجامع بين الجملتين بأنواعه الثلاثة وماذكروه عن التماثل والتضايف والتضاد وغيرهما فان بيان ذلك في المفردات أوضح منه في الجمل ولذا لم يسع السكاكي عند الحديث عن الجامع الا أن يسوق الأمثلة من وادي المفردات ، فالفصل واجب في التوابع النحوية غير عطف النسق وهي مفردات لما بين التابع والمتبوع من انفصال تام يجعل الوصل حينئذ عطفا للشيء على نفسه ، ومعلوم أن العطف يقتضي المغايرة .

... والفصل لكمال الاتصال بين الجمل معمول على تلك الصورة ...

والوصل مردود في مثل قول أبي تمام :

لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

لعدم المناسبة التي تجمع بين المعطوف والمعطوف عليه إذ لا مناسبة ظاهره بين مرارة الفراق وكرم أبي الحسين فبينهما على هذا الرأي انقطاع تام لا يصح معه الاتيان بالواو التي لا تجمع الا المتناسبين ، ومن هنا كان الحكم على أبي تمام بالخطاء ووجوب الفصل هنا انعدام الجامع بين الجملتين لهذا السبب .

والوصل واقع موقعه في قول المتنبي :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وقول الشاعر : ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو اسحاق ، والقمر .

وذلك لوجود نوع من الجامع بينهما ... والوصل للتوسط بين الكمالين في الجمل يشبههما .

واذا كنا نعلم أسرار الفصل والوصل بين الجمل أدق وأخفى منها بين المفردات فان هذا لا يمنع من أن البحث يجب أن يشملها معا ويعطي كلا منها مقدار ما يستحقه من العناية والجهد .

أداة الوصل :

وكماقصر علماء البلاغة البحث في الفصل والوصل على الجمل التي لا محل لها من الاعراب ، كذلك قصروه على حرف الواو بين حروف العطف المتعددة ، وذلك لأن كل حرف منها يفيد مع التشريك معاني أخرى مثل ان «الفاء» للترتيب والتعقيب و «ثم» للترتيب والتراخي و «أو» تردد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا يعينه و «بل» تفيد الاضراب و «لكن» تفيد الاستدراك وكل ذلك مما هو معروف في الدراسات النحوية فكانت هذه المعاني بمثابة المناسبات الخاصة فاذا ما ورد حرف من تلك الحروف رابطاً بين أمرين فانه يفيد مع التشريك بينهما في الحكم معناه الموضوع له والذي عرف به فإذا قلت «جاء محمد فعلي» أفادت الفاء تشريك علي لمحمد في المجيء كما أفادت أن مجيء علي جاء عقب مجيء محمد بدون مهلة ولاشيء وراء هذين .

أما الواو فليست الا في التشريك في الحكم وانما تتعلق أغراض الناس بتشريك المتناسبين في الحكم ، لا بتشريك مالم يوجب بينهما نوع من أنواع الارتباط فاذا قلت جاءني زيد وعمرو لم تفد بالواو شيئا أكثر من اشراك عمرو في المجيء الذي أثبته لزيد والجمع بينه وبينه ولا يتصور اشراك بين شيئين حين يكون هناك يقع ذلك التشريك فيه واذا كان ذلك كذلك ولم يكن معنا في قولنا زيد قائم وعمرو قاعد معنى تزعم أن الواو أشركت بين هاتين الجملتين فيه ثبت اشكال المسألة .

ولكن مع هذا يجب أن ندرك أنه مع معرفة معاني حروف العطف غير الواو مما يجعل فهم الأسلوب معها سهلاً ميسوراً الا أننا نجد أنفسنا في أحيان كثيرة نحتاج الى التأمل الذي نعرف به لماذا جاءت «ثم» «مثلاً» في هذا الموضع وقد كان ظاهر الأمر أن تجيء «الفاء» أو العكس مما يقتضي الكشف عنه اجالة النظر في حواشي الأسلوب وظروف النص وملابساته حتى نقف على الأحوال التي أوجبت التعبير بهذا الحرف دون ذلك ومما لا جدال فيه أن معرفة هذا الأمر يعد من صميم عمل البلاغي .

دائـرة الفصـل والوصـل

ونستطيع الآن أن نـدرك أن بحث الفصل والوصل قـد وقف عنـد حـدود الجمل التي لا محل لها من الاعراب دون غيرهـا ، كما انحصر أيضاً في الواو دون غيرهـا من حروف العطف الأخرى ولقد كان من الممكن أن تتسع دائرة هذا البحث لو أن المتأخرين بنوا على ما وضعه عبد القاهر وخطوا بالبلاغة خطوات أخرى ولكنهم وقفوا عند الابعاد والحدود التي خطها قلمه .

لو أننا رجعنا الى ما ذكرناه من حـديث «أكثم بن صيفي» افصلوا كل معنى منقض ، وصلوا اذا كان الكلام معجوناً بعضه ببعض وما ذكر معه من أقوال أخرى لرأينا أن في هذا مع ايغـالـه في القدم منطلقاً كان في استطاعتنا أن نبدأ السير منه لتناول البحث في الأساليب الأدبية كاملة دون الوقوف عند حدود المفردات أو الجمل .

فقد كان من الممكن أن يبحث الفصل والوصل بمفهوم أوسع مما استقر عليـه ليشمل الكشف عنه بين الفقرات المتعددة في الموضوع الواحـد ، وبين الأفكار المختلفـة التي يشتمل عليهـا نص من النصوص وذلك لو أننا نظرنا إليها من خلال الربـط المعنوي أيضـا دون التقيـد بحروف العطف أو بخصوص الواو من بينها ، وبهذا يمكننا أن نرد على البلاغة العربية مـا يوجـه إليهـا كثير من خصومهـا حين وجودهـا في الأعم الأغلب تقتصر على بحث المفردات أو الجملـة أو الجملتين دون أن تتعدى ذلك لتنظر في النص الأدبي كاملاً ومـا ذكر في بعض الألوان البـديعيـة كحسن التخلص وغيره كان من الممكن بناء على تلك النظرة أن تعتبر في دائرة هذا البحث .

واذا كان الامام عبد القاهر الجرجاني قد ألم بجانب هذا البحث وأوفاه حقـه في جـانب الجمل التي لا محل لها من الاعراب فقد كان لزاما على من جاء بعده أن يبدأوا من حيث انتهى مـادام الأمر قابلاً للبناء والاضافة ولكن على ما يظهر كان لشخصية الإمام وقوة تأثيرهـا من نـاحيـة ، ولثقافة العصر من ناحية أخرى ما حلل بين الاضافة والزيادة على ما بناه الإمـام ووضعـه حتى وقف الفصل والوصل عند الابعاد التي أشرنا إليها .

الفصل والوصل بين الجمل

أحوال الفصل :

أولاً : الفصل لعدم التشريك في الحكم أو القيد :

قال تعالى في شأن المنافقين ﴿واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شيـاطينهم قـالوا انا معكم ، انما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ وبالتأمل في هاتين

الآيتين نرى أن جملة الله يستهزىء بهم قد جاءت مفصولة عما قبلها لأنها لو وصلت به لاقتضى ذلك أن تكون شريكة له في الحكم أو القيد وليس هذا المعنى المراد من الآية بيان ذلك :

انه لو عطفت الجملة المذكورة على الجملة أنا معكم وهي حكاية عن قول المنافقين لاقتضى ذلك العطف بناء على ما يقتضيه النحو العربي الذي يقرر أن العطف علانية تكرار العامل ، أن تكون جملة ﴿الله يستهزىء بهم﴾ حكاية أيضاً عن قول المنافقين مع أنها من قول الله سبحانه وفي كل هذا العطف يصبح معنى الآية الكريمة : واذا خلا المنافقون الى زعماء الشرك قالوا لهم إنا معكم وقالوا أيضا الله يستهزىء بهم وهذا المعنى الذي أدى إليه الوصل بالواو عطفا على مقول القول ليس بصحيح لأنهم لم يقولوا : ﴿الله يستهزىء بهم﴾ وكيف يقولون عن أنفسهم ذلك ؟ وانما الذي قاله هو الله سبحانه وتعالى في حقهم ، ومن هنا امتنع عطف ماهو من قول الله سبحانه على ما هو من قول المنافقين لعدم الاشتراك في الحكم فوجب الفصل لذلك .

وكذلك يمتنع عطف الجملة المذكورة ﴿الله يستهزىء بهم﴾ على جملةقالوا ﴿إنا معكم ..﴾ لأنها لو عطفت عليها لاقتضى ذلك بناء على القانون النحوي أيضاً الذي اشترط قيدا في الجواب ، وما تقتضيه البلاغة التي تجعل المعطوف على هذا الجواب يأخذ أحكام المعطوف عليه فيكون مقيدا بما قيد به – أن يكون استهزاء الله بهم مقيدا بوقت خلوهم الى شياطينهم مع أن واقع الأمر يفيد أن هذا الاستهزاء دائم لهم ماداموا على النفاق يستوي في ذلك أن يخلوا الى شياطينهم أولاً يخلو إليها فلعدم ارادة تشريك المعطوف وهو جملة ﴿الله يستهزىء بهم﴾ للمعطوف عليه وهو جملة قالوا ﴿إنا معكم﴾ وجب الفصل .

وما قيل في هذه الآية يقال في قوله تعالى : ﴿واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ .

وقوله تعالى ﴿واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ .

اذ لا يصح عطف ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ على ﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ لعدم اشتراك المعطوف في حكم المعطوف عليه الواقع مفعولاً ﴿لقالوا﴾ لأن المعطوف من قول الله وليس من قول الكافرين ، ومن هنا وجب الفصل .

وكذلك لا يصح عطف جملة ﴿ألا انهم هم السفهاء﴾ على جملة ﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ حتى لا يتقيد المعطوف بما يتقيد به المعطوف عليه فيفسد معنى الآية بهذا العطف

إذ يصير معناها ﴿واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾ يتأكد أنهم هم السفهاء مع أن كونهم هم السفهاء أمر دائم الثبوت ليس مقيدا بوقت القول لهم ﴿آمنوا كما آمن الناس﴾ ولهذا وجب الفصل منها لدخول هذا المعنى الفاسد الى الآية عن طريق الوصل . والأمر في الآية الثالثة واضح يمكن ادراكه في ضوء ما بيناه في الآيتين السابقتين .